الخاتمة

وانتهى بنا الحوار عابرين الأندلس مقلعين من الفتح وعصر الولاة " مارين بعصر الإمارة والتحول إلى الخلافة حتى دويلات الطوائف وغرناطة الحبيسة ، لنقف عند بؤر الضياع متحسرين على الخاسرين والبكّائين والمتباكين ، دون أن نتجاهل قلاع المجد بأبطالها المجاهدين وما أبرزته من عطاء لعقول المجتهدين والمبدعين .

لقد ترك الأندلس بصماته عبر مختلف قنوات الثقافات والحضارات التالية داخل وخارج الدار ، لقد أثرى فكرنا بقدر ما أثرى فكر غيرنا ، وهذه هى خصائص الحضارات الإنسانية العملاقة ، حضارة ارتكزت على وحى من اللّه ، فأنارت الطريق للإنسان إذا ما التزم بهذا الوحى وفى كل زمان ومكان . حضارتنا إذن ترعرعت فى ساحة الإسلام وأعطت خلال تداول الأيام والسنين والأعوام كنوزاً للبَشرية ، لم تبخل ولم تمارس مصادرة أو اغتيالاً للإنسان باسم الإنسان ، لقد أحيته مستخلفاً فى الأرض وأضاءت له السُبل ، وحينما تراجعت - وهذه سُنّة اللّه فى تدافع الناس والأمم - محصورة ومحاصَرة فى معاقلها ورثتها حضارة الغرب كما ورثت من غيرها بعد أن مارست عليها كل وسائل الضغوط وتحت مختلف المسميات ، وفى النهاية كان الاستعمار وبات السائد مسوداً ، قابعاً فى عقر داره يدافع عما تبقى له ، ومع هذا نتساءل هل استطاعت حضارة الغرب أن تعيد للإنسان هذا الإشراق وهذا التعادل الذى عرفه حينما كانت تشع شمس حضارة الإسلام على وجهه فتكسبه مع القناعة والرضا ثوباً من الطمأنينة والصفاء ، حضارة الغرب وهى حضارة الأشياء ركزت على ترفيه ورخاء جسد الإنسان وأملت عليه تسلط الاستهلاك والإشباع ، وأصبح الإنسان فى خدمة الأشياء ولم تعد الأشياء فى خدمته ، فهو من أجلها يعيش وبسلاسلها مرهون أو مستعَبد يلهث ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ووصل وهو فى قمة إنجازاته إلى قمة معاناته ، تحاصره الهموم النفسية ، يستنشق التلوث ويرتعب من « الإيدز - السيدا » ليسقط فى ضباب المخدرات .

تلك هى خصائص العملاق - القزم ، الصحيح - المريض ، الذى عليه أن يفخر فعلاً بإنجازاته العملاقة ، عصر الكمبيوتر وعصر اختزال الزمان والمكان ، عصر المعلومات ، وعصر التوصيل والاتصال ، مرئية ومسموعة ومقروءة ، عصر السباحة فى الفضاء والتنزه فوق سطح القمر ، ومع هذا فهو عصر متميِّز أيضاً بما أشرنا إليه سَلَفاً من هموم ومعاناة وتلوث واهتزاز وأوبئة مريعة ...

ونعود إلى أندلسنا الذى لا يمكن إنكار دوره فى إرهاصات هذه الحضارة الغربية وفى بذر جذورها ، أسماء نذكرها ونتذكرها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، أشعت على تربة هذه الجذور وغذتها برحيق العطاء ، فهذا الزهراوى أبو القاسم « أبو الكاسيس » ، وابن وافد « ابن غفيق الطبيب » ، والبطروجى « البتراجيو » ، وبخاصة ابن رشد « أفيرويس » ، وكتابه فى الكليات « كليجات » الذى غذّى الأوربيين بمعرفته ، فضلاً عن دوره فى الحركة الاسكولاستيكية النصرانية ، وتأثيره على القديس توماس الأكوينى ، وآثاره فى قضية التوفيق فى اللاهوت لديهم بين الدين والفلسفة ، حتى متصوفة الأندلس ، محيى الدين بن عربى وابن سبعين ، كانت لهما الأصداء فى الغرب والتى لا يجهلها العارفون ... أعلام ، وأعلام قدَّمها هذا « الفردوس المفقود » الذى عدنا إليه فى النصف الأخير من القرن العشرين كسائحين نتطلع إلى آثاره وبقاياه ، وباستئذان دخلنا وخرجنا من « قصر الحمراء » بعد أن انتهى الوقت المخصص للسياحة والجولان ، وتهاوت بنا الأقدام عبر صخرته ، نمضغ الأحزان ، وانزوينا فى أسفل المكان ، ونظرنا إلى ما حولنا من آفاق نتأسى على الماضى فى الحاضر ، كما نتأسى على الحاضر فى الماضى عبر الأندلس ، وكيف أن الجروح مهما التأمت بعد الاستئصال تظل دائماً تذكرنا بين الفينة والأخرى باستيطانها ، وقد استعصت عليها دماء الاستنزاف من كثرة ما تعايشت معه من نكسات وأزمات .

كان الأندلس الذى لم يقدِّم حضارته العملاقة عبر جلسة ودية أو لقاء مجاملة ، أو على إيقاع أنغام هادئة حافلة بالرياحين والورود ، وإنما قدَّمها عبر مخاضات ومن خلال أعاصير تواجه معها رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، لم يحفلوا

بالعوائق ، ولم يقفوا أمام الحواجز ، ولا أثنتهم عن عزيمتهم شوامخ الجبال ، ما تقلص مدهم فى أية مواجهة ولا على أى جبهة كانت ، فبقدر التحلى بقناعة الإيمان والتلاحم مع الغاية والهدف والتضحية فى سبيل المثل العليا المجسدة لقداسة العقيدة والتى من أجلها تبرز أصالة الإنسان ، بقدر ما يثبت فى زحفه ويفجّر طاقته محققاً لما يبتغيه وما يأمله ، وهذا ما لاحظناه مع الجيل الذى ثبت أقدامه على أرض الأندلس فى البداية رافعاً لراية اللّه ، ناشراً للمبادىء الخالدة ، تعاوناً وبراً ، وإخاءً ووفاءً ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً .... وتوالت الأجيال وتدولت الأيام وتداخل فيها الواعى بالغافل والجاد باللاهى والملتزم بالانتهازى ، وفى كل مرة يتصدر فى التداخل جيل الواعين الجادين والملتزمين ، جيل قلاع المجد من الأبطال المجاهدين ، يستعيد الأندلس تعادله ولو إلى حين ، وتعلو كلمة الحق مرفرفة براية الإسلام ، حفّاقة بالإشعاع والإشراق ، وفى كل مرة يتزاحم فى التداخل طافياً جيل الغافلين والمتغافلين بهوامشه من اللاهين والمتلاهين ، مهيئاً الأرض للانتهازيين والوصوليين ، مجسّداً لبؤر الضياع ، يتراجع الأندلس ويفتقد توازنه وتكفهر سماءه وتتقلص قدراته ويعتمه الضباب ليصبح ضحية لكل طامع مفترس ، ومن باب أولى لهذا الخصم المتربص به والقابع فى الانتظار حوله يتحين الفرص لينقض ويستحوذ .

وهكذا لاحظنا منذ الجولة الأولى فى الأندلس مع عصر الولاة كيف أن هذا المنتصر الفاتح ، رغم قدراته وتفانيه فى أداء رسالته ، كان عليه أن يكمل تأمين مسيرته ، ويعى بأن ضمان استمراره مرتبط بوعيه بما يدبره له خصمه ، فلا يترك لبريق الانتصار فرصة إعمائه عن جزئيات قد لا تبدو عظيمة الشأن فى حينها ، ولكن حين استغلالها من الخصم تؤدى إلى قلب الموازين ، وربما إلى تأهيل المنهزم ليستعيد أنفاسه ، وهذا ما حدث ، فضلاً عن أن بعض الهفوات بدورها قد تتسع فيصعب احتواءها ، ومن ثَمّ كان لزاماً على المنتصر أن يتحاشاها محصناً لانتصاره من خارجه وداخله ، من خارجه بمتابعة خصمه سعياً لاستئصاله من الأساس ، مؤمّناً بذلك عدم عودته ، ومن داخله بعدم تركه للطفيليات

والحساسيات والحماسات الشخصانية ، والعصبيات العشائرية والقَبلية ، والفتن والمؤامرات والمكائد ، أن تنمو وتنبث فى أحشائه لتبث فيها بذور الفُرقة ، مؤهلة الجسد للتمزق والتفتت .

لقد تغافل الفاتح المنتصر - كما رأينا فى عرضنا - وهو واثق من قدرته عن قدرة خصمه ومناوراته فى اقتناص الفرص ليستعيد معه الكَرَّة تلو الكَرَّة ... تغافل أملته ربما نشوة السيطرة والهيمنة والنصر ، لقد كان على هذا المجاهد الذى اجتاز كل حواجز الأندلس أن يختار أيضاً حواجز أنانيته وشخصانيته ، فيعلو برغباته لتصبح لديه الرغبة الكامنة والمعلنة على حد سواء : هى إعلاء كلمة اللّه ، لم يتغافل المتغافلون أو الغافلون عن نية مبيَّتة أو مقصد دفين ، ولكن طبيعة الأحداث بما فى ذلك تزكيبة الفئات والجماعات الفاتحة التى كانت تعبىء قدراتها إبَّان اندماجها وتلاحمهامع عقيدتها الخالدة وإيمانها الراسخ ، بينما هذه التعبئة تتضاءل ، بل وكثيراً ما تتلاشى ، حينما تغزوها النزعة الذاتية غير الواعية بغاياتها وأهدافها ، فتسقط فى متاهات المنافع الفانية والمصالح الوقتية الزائلة ، متساقطة فى بؤر الضياع ، باكية أو متباكية ، خسرت الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ضاعت وأضاعت معها الأندلس الملموس ، وبقى لنا ذكرى عالقة بالوجدان ترجمتها تلقائياً صفحات هذا الحوار لتكون عظة وعبرة للأجيال الحاضرة والقادمة ، شعوباً ونخباً وقيادة ، تتحمل صياغة القرار ، وتقع عليها مسؤوليته للسير بالأمة نحو استعادة قلاع مجدها ، متجاوزة لبؤر ضياعها ، واعية برسالتها الخالدة لأمة لـ تُخلق عبثاً ، وإنما هى كانت وستكون بمشيئة اللّه : ﴿ خَيْرَ أُمَّة اخرجت للناس ﴾ (١) .

* * *

(١) آل عمران : ١١٠